مـادة فقه السيرة

(١٠٧)

انتساب

دكتورة المادة

أمل المرشد

المبحث الأول

نسب الرسول ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [(١)] .

ونسب الرسول ﷺ بعد ذلك إلى إبراهيم عليه السلام مختلف فيه بين أهل السير ، أما بعد ذلك ، أي من إبراهيم عليه السلام إلى آدم عليه السلام فمن ذكر فيه شيئاً فلا دليل معه يمكن أن يعتمد عليه في هذا النسب ، بل إن فيه نسباً غير صحيح [(٢)] .

أجداد الرسول ﷺ :

١) قصي : هو الذي جمع قريشاً واستعاد سلطتها على الحرم ، وكانت له مكانة عظيمة في قريش حتى كانوا يقولون للرسول ﷺ بعد

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٧ / ١٦٢ ، كتاب رقم (٦٣) ، باب (٢٨) ويمكن أن يأتي نسب الرسول من جده قصي إلي عدنان على هذا النحو تسهيلاً لحفظه : (قصت كلاب مرةً كعب لؤي فغالبها فهر بن مالك الذي نضر كنانة خزيمة فأدركه يأس مضر بنزار معد لعدنان) فكل كلمة تعني اسم رجل حسب تسلسل نسب الرسول عدا (الذي). أفادني بهذا مشافهة د . أحمد أبابطين .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٥١ .

بعثته : ابعث لنا قصياً ، فإنه كان شيخ صدق ، فإن شهد لك اتبعناك [١] .

٢) لما هلك قصي خلفه أولاده الأربعة وكان أشرفهم في قريش عبد مناف الذي كانت له السقاية والرفادة [٢] .

٣) بعد عبد مناف خلفه ابنه هشام وهو أول من سن رحلة الشتاء والصيف ، وسُمِّي هاشماً لكونه يهشم الثريد للحجاج واسمه الحقيقي (عمرو) [٣] .

٤) ثم بعد هشام جاء عبد المطلب الذي نشأ في المدينة وكان شبيهاً بجده الأعلى (قصي) ، وهو الذي حفر بئر زمزم ، وهو الذي أقسم إن رزقه الله عشرة من الولد أن يذبح أحدهم [٤] .

يقول المصطفى ﷺ عن نسبه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش [٥] بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » رواه مسلم [٦] .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٥١ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ١٤٤ .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٤٧ .

(٤) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/١٦٤ .

(٥) قال ابن هشام : النضر هو قريش ، فمن كان ولده فهو قرشي ومن لم يكن ولده فليس بقرشي وإنما سُمِّيت قريش بهذا الاسم من التقرش ، وهو التجارة والاكتساب وقال ابن إسحاق : ويقال إنما سُمِّيت قريش بهذا الاسم ؛ لتجمعها من بعد تفرقها ويقال للتجمع : تقرش ، انظر : سيرة ابن هشام ١/١٠٢-١٠٣ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ٢/٢٠٠- ٢٠١ .

(٦) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١٧٨٢/٤ ، رقم ٢٢٧٦ .

ولقد شهد حتى الأعداء بطهارة هذا النسب ورفعته ، فقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ـ عندما كان كافراً ـ عن نسب الرسول ﷺ فقال : (هو فينا ذو نسب) رواه البخاري [١] .

ولمكانة هذا النسب الكريم لم نجد أحداً من أعداء الرسول ﷺ طعن في نسبه ، مع حرصهم الشديد على اختلاق كل ما يمكن أن يشوِّه سمعته أو ينقص من مقامه الشريف ﷺ .

ما سر اختيار الرسول ﷺ من قبيلة ذات مكانة ؟ :

١) لعل من الحكمة في ذلك أن تكون دعوته إلى المساواة والعدل قائمة على أسس ثابتة ، وليست رد فعل لحالة نفسية أو مكانة اجتماعية ، فلو لم يكن محمد ﷺ في هذا النسب الرفيع لوجدنا من يقول : إن محمداً إنما يطالب بما افتقده ؛ ليرد اعتباره الاجتماعي . ولقد رأينا كثيراً من الدعوات المنحرفة الباطلة كانت دعوتهم صدى لواقع سيئ لما عاشوه [٢] ، فمثلاً الماركسية الملحدة دعا إليها رجل عاش منبوذاً في المجتمع ، فأراد رد الاعتبار لنفسه بهذه الدعوة التي تواجه الرأسمالية التي افتقدها في حياته .

٢) أن العرب كانت تعرف نسبه وأصالته ، فلا تجد عضاضة في الانضواء تحت لوائه ، ولنا أن نتصور ظهور شخص من الموالي بين

---

(١) الإمام البخاري ، صحيح البخاري ١ / ٥ ، كتاب بدء الوحي ، حديث رقم ٦ .
(٢) انظر : صالح الشامي ، من معين السيرة ص ١٧ / ١٨ .

هذه القبائل ، ماذا سيكون رد فعل القبائل ؟ ولقد قال الكفار مع هذا النسب الرفيع : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [(١)] .

٣) أن كون الرسول ﷺ من قبيلة ذات مكانة يعود على الرسول ﷺ بالحماية والنصرة ، ولقد وقفت قبيلة الرسول ﷺ مواقف طيبة في حمايته ، كما أنهم دخلوا معه الشعب ، ولما حاول كفار قريش قتله كان من العقبات التي أهمتهم قبيلته ﷺ ، ووقف أبو طالب مواقفه المشهورة ، وإسلام حمزة ﷺ كان أصله وبدايته ـ كما تقول كتب السير ـ حمية لابن أخيه .

❁❁❁

(١) سورة الزخرف ، الآية رقم (٣١) .

المبحث الثالث :

مولد الرسول ﷺ

١. تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب من بني زهرة ، ثم خرج إلى الشام (غزة) في عير من قريش في تجارة ، ثم انصرفوا في طريق عودتهم إلى المدينة ، وتوقف عبد الله عند أخواله بني النجار ؛ لشعوره بالمرض ، وأقام عندهم أياماً ثم مات ودُفِنَ بالمدينة ورسول الله ﷺ جنين في بطن أمه ، وعمر عبد الله حينئذ خمس وعشرون سنة [(١)] ، وهذا اليتم هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [(٢)] .

٢. لا خلاف أن الرسول ﷺ وُلِدَ يوم الاثنين لحديث : أنه سُئِلَ عن صيام يوم الاثنين ، فقال : « ذاك يوم وُلِدْتُ فيه وأُنْزِلَ علي فيه » رواه الإمام مسلم [(٣)] .

٣. الصحيح الذي عليه الجمهور أنه وُلِدَ ﷺ في مكة ، أما مكانه في مكة فقيل : في الدار الكائنة في شعب بني هاشم ، وقيل : بالدار التي عند الصفا [(٤)] ، وكانت القابلة هي الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه وعنها ـ [(٥)] .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٦٣ ، وابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ١ / ٦ .
(٢) سورة الضحى ، الآية رقم (٦) .
(٣) صحيح الإمام مسلم ٢ / ٨١٩ ، حديث رقم ١٩٧ .
(٤) انظر : السهيلي ، الروض الأنف ١/١٨٤ ، والشامي ، سبل الهدى ١/ ٤٠٨ .
(٥) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢/٢٦٤ .

واختلفوا في أي شهر ولد ؟ :

فقيل : وُلِدَ في ربيع الأول ، وقيل : ولد في رمضان ، واستدلوا على هذا بأنه ﷺ بُعِثَ على رأس الأربعين ، وقد بُعِثَ في رمضان فتكون ولادته في شهر رمضان [(١)] .

ولكن الصحيح أنه ولد في ربيع الأول ، ثم اختلفوا في أي يوم من ربيع الأول ؟ على الأقوال التالية : ٢ ربيع الأول ، أو ٨ ربيع الأول ، أو ٩ ربيع الأول ، أو ١٠ ربيع الأول ، أو ١٢ ربيع الأول ، أو ١٧ ربيع الأول ، أو ٢٢ ربيع الأول [(٢)] .

أما عام مولده :

فيقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : وكان مولده ﷺ عام الفيل و وهذا هو المشهور عند الجمهور ، قال إبراهيم بن المنذر: وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه عليه الصلاة وأتم التسليم وُلِدَ عام الفيل

---

(١) نقل هذا القول ابن كثير في البداية والنهاية ٢ / ٢٦٠ وقال عنه : وهو قول غريب جداً ، وعقّب على الدليل الذي أشرت إليه بقوله : (وهذا فيه نظر) .

(٢) انظر هذا الخلاف في :

١- ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٧١ .

٢- أبو حاتم البستي ، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ص ٣٣ / ٣٤.

٣- ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٦٠ .

٤- الذهبي ، السيرة النبوية ص ٧ .

٥- المنصورفوري ، رحمة للعالمين ١ / ٣٣ .

٦- المباركفوري ، الرحيق المختوم ص ٦٢ .

[١] عام ٥٧١ م ، عن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « رأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » [٢] .

١. وبعد ولادته ﷺ أرسلته أمه إلى جده عبد المطلب ، فأخذه ودخل به الكعبة ، ولما كان يوم سابعه ذبح عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب ما سمَّيتَ ابنَك الذي دعيتنا على وجهه ؟ قال : محمداً ، قالوا : كيف سمَّيتَ باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟ فقال : إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض ويحمده أهل السماء ، وهذا الاسم (محمد) غير معهود في الجاهلية إلا من عدة أشخاص سمَّاهم آباؤهم بهذا الاسم لما سمعوا بأن نبياً سيُبْعَثُ اسمه محمد رجاء أن يكون هو .

ثم إن الله سبحانه وتعالى حمى كل من تسمَّى بهذا الاسم في ذلك الوقت بأن يدعي النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه أمر يشكل على أحد [٣] .

وقفة مع تاريخ ميلاد الرسول ﷺ :

إذا نظرنا إلى تاريخ ميلاد الرسول ﷺ نلحظ كثرة ما قيل في تاريخ ميلاد الرسول ﷺ ، فالأقوال كثيرة ، ثم إن هذه الأقوال ليس بينها

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٦٧ ، والذهبي ، السيرة النبوية ص ٦ .
(٢) أخرجه الدارمي في سننه ١ / ١٧ ، رقم ١٣ وقال محققه : (رواه أيضاً أحمد والطبراني في الكبير وإسناد أحمد حسن) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم ٣٤٥١ .
(٣) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٥٩ .

المبحث الرابع
رضاعته ﷺ

بعد ولادته ﷺ أرضعته أمه آمنة ثلاثة أيام أو سبعة أيام ، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية [١] ، ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أياماً ، يقول الرسول ﷺ : « أرضعتني وأبا سلمة ثويبة » [٢] ، قال

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ١/٨٣ .

(٢) البخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٩ / ١٤٠ ، حديث رقم ٥١٠١ ، وقال ابن حجر في فتح الباري ٩ / ١٤٥ : (وفي الحديث دلالة على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة لكنه مخالف لظاهر القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان :٢٣) ثم أجاب عن الحديث ثم قال : (وقال البيهقي : ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات) ثم ختم البحث بقوله : (وتتمة هذا أن يقع التفضل المذكور إكراماً لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك) ، وانظر أيضاً : السهيلي ، الروض الأنف ٣ / ٦٧ ، ونضيف أيضاً أن فرح أبي لهب بمولود لأخيه فرح طبيعي لا تعبدي ، إذ كل إنسان يفرح بالمولود يولد له أو لأحد إخوته أو أقاربه ، والفرح إذا لم يكن لله لا يثاب عليه فاعله ، قاله الجزائري في الأنصاب ص٣٠ نقله : حافظ بن موسى الحكمي في بحث

عروة بن الزبير ـ رضي الله تعالى عنهما ـ : (وثويبة مولاة لأبي لهب ، وكان أبو لهب أعتقها ، فأرضعت النبي ﷺ ، فلما مات أبو لهب ، أريه بعض أهله بشر حيبة ، قال له : ماذا لقيت ؟ قال أبو لهب : لم ألق بعدكم ، غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة)[1] ، ثم قدمت مجموعة من النساء يبحثن عن الأطفال ، منهن حليمة السعدية ـ رضي الله تعالى عنها ـ[2] ، فعرض عليهن الرسول ﷺ ، فكن يرفضن أخذه إذا قيل لهن : إنه يتيم ، ولما لم تجد ـ رضي الله عنها ـ طفلاً تأخذه في حين وجدت جميع النساء أطفالاً عادت حليمة ـ رضي الله عنها ـ

الأعياد المشروعة والممنوعة ، رسالة ماجستير غير منشورة ١ / ٢٨٩ ، كلية أصول الدين بالرياض .

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر : ابن سعد ، الطبقات ١ / ١١٤ ، وأبو داود في سننه ٤ / ٣٣٧ ، كتاب الأدب ، رقم ٥١٤٤ ، وابن عبد البر ، الاستيعاب ٨ / ١٨١٢ ، والمنذري ، مختصر سنن أبي داود وقال : (وأمه ﷺ من الرضاعة حليمة السعدية ، أسلمت وجاءت إليه وروت عنه ﷺ) ٨ / ٣٩ ، وعدها ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في القسم الأول من الصحابة ٨ / ٥٢ - ٥٣ وقال عن القسم الأول كما في المقدمة ١/٣ : (فالقسم الأول فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره سواء كانت الطريقة صحيحة أو حسنة أو ضعيفة أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان) ، وانظر : الشامي ، سبل الهدى والرشاد ١/ ٤٦٥-٤٦٩ ، فقد خصص باباً في إسلام حليمة وزوجها .

وأخذته معها ، وقد ورد في صحيح مسلم إشارة إلى هذه الرضاعة [١] .

وبعد مضي سنتين قدمت به إلى أمه وهي حريصة على بقائه معها ؛ لما يرون فيه من البركة التي حلت عليهم منذ نزل عندهم ، فلم تزل بها حتى وافقت على رده معها [٢] .

وقصة رضاعته ﷺ مشهورة في كتب السيرة حكتها حليمة السعدية ـ رضي الله عنها ـ تصف فيها قدومها إلى مكة ، ثم قبولها في النهاية للرسول ﷺ لما لم تجد غيره ، ثم ما حل في ديارهم من البركة [٣] .

وإرسال النبي ﷺ للرضاعة في البادية على عادة أشراف العرب لحكم نذكر منها :

---

(١) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١ / ١٤٧ ، حديث رقم ٢٦١ ، و يقال : إن ديار حليمة السعدية ـ رضي الله عنها ـ في واد جنوب غربي الطائف يبعد عنه مسافة تزيد عن سبعين كيلاً في منطقة تسمى حالياً ديار بني سعد وهي مجموعة من القرى ويقال : إن القرية التي نشأ فيها الرسول ﷺ هناك تُسَمَّى (الذويبات) ويقول الشيخ بكر أبو زيد : (وفي بني سعد عند قرية الشهبة على نحو مائة كيلو من الطائف جنوب غرب ، مسجد يُسَمَّى (مسجد حليمة السعدية) وهو مسجد لا أصل له ، وبنو سعد هناك لا يرون صحة هذا ، ويقولون: إن مراضع النبي ﷺ في بني سعد قرب وادي نخلة بين ميقات قرن المنازل وحنين والله أعلم) تصحيح الدعاء ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٧٥ .

(٣) انظر القصة مفصلة في : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ١٧٣ — ١٧٤ ، والذهبي ، السيرة النبوية ص ١٩ - ٢٠ .

١. أن في رضاعته ﷺ في البادية بعيداً عن المدينة تجنباً للأوبئة ، واستفادة من مناخ البادية الصحي ، خاصة وأن مكة في ذاك الوقت يفد إليها الكثير من جميع أجناس الناس للحج والزيارة والتجارة وغيرها ، مما يجعلها معرَّضة للأوبئة أكثر من غيرها .

ولذلك ينصح المربون بالاهتمام بصحة الطفل ، والخروج به إلى الخلاء والهواء الطلق ؛ لما في ذلك من أثر تربوي ونفسي على هذا الطفل في مستقبل حياته .

وكثير من الأمراض وبخاصة النفسية منها إنما يعاني منها أبناء المدن الذين تضيق بهم المساكن ، ويهملهم الآباء ، فلا يخرجون بهم حيث تنشرح النفس ويتجدد الهواء وتنتعش الحياة معهم ، والتربية المعاصرة اليوم تنادي (بأهمية قيام الأطفال برحلات إلى الريف والجبال والسهول والوديان ، فذاك نافذة لتفتح الذهن والذكاء) [١] ، (وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول : أضر بنا حب الوليد ؛ لأن الوليد كان لحاناً ، وكان سليمان فصيحاً ؛ لأن الوليد أقام مع أمه وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعربوا ، ثم أدبوا فتأدبوا) [٢]

٢. إن في خروج هؤلاء الأطفال إلى البادية تعويداً لهم على النطق السليم للغة العربية ، وحماية لهم من اللحن فيها ، وهذا يدلنا على

---

(١) د. عبد الحميد الهاشمي ، الرسول العربي المربي ص ٨٧ .
(٢) السهيلي ، الروض الأنف ١ / ١٨٨ .

المبحث الخامس

شق صدره ﷺ

عن أنس بن مالك ﷺ (أن الرسول ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لآمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره) ، فقالوا : إن محمداً قد قُتِلَ ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر المِخْيَط في صدره) [(١)].

وجاء في رواية أبي نعيم عن ابن كثير مزيد تفصيل وهذا نصها : « كانت حاضنتي من بني سعد بن بكرة ، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ، ولم نأخذ معنا زاداً فقلت [(٢)] : يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخي ومكثت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ فقال : نعم ، فأقبلا

---

(١) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ١ / ١٤٧ ، كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٦١ .

(٢) هذا يؤيد أن قصة شق صدره ﷺ في السنة الرابعة أو بعدها ؛ لأن ما دون ذلك لا يتمكن ولا يؤمن للذهاب بالبهم ، ولا يفهم الخطاب ولا يدرك حاجته إلى الزاد أو يرسل أخاه لأجل هذا الغرض .

يبتدرانني ، فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ، ثم قال : ائتني بماء برد ، فغسلا به قلبي ، ثم قال : ائتني بالسكينة ، فذرها في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه ، فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة ... »[١] .

وقد أشفقت ظئره أن يكون حدث له حادث سوء فأسرعت به عائدة على أمه في مكة وقالت لها : أديت أمانتي وذمتي ، وحدثتها بالذي جرى ، فطمأنتها أمه وقالت : إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام ، والأرجح أن هذه الحادثة وقعت للرسول ﷺ وعمره أربع سنوات[٢] ، وقد ثبت شق الصدر مرة أخرى عند الإسراء كما سيأتي[٣] .

ماذا نستفيد من حادثة شق صدره ﷺ ؟ :

١) في هذه الحادثة التي جرت للرسول ﷺ عيانًا وشهدها بعض الأفراد إشارة إلى الإعداد والتهيئة للرسول ﷺ بأمر يعرفه الناس ، فقد

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ / ٢٩٩ ، وانظر : الذهبي ، السيرة النبوية ص ٢١ ، والشامي ، سبل الهدي ٢ / ٨٢ ، ومحمد الصوياني ، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ص ٢٨.

(٢) انظر : محمد أبو شهبة ، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ١ / ١٩٢ .

(٣) متفق عليه : واللفظ للبخاري ، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ٧ / ٢٠١ - ٢٠٢ ، رقم ٣٨٨٧ ، وصحيح مسلم ١ / ١٤٩ ، رقم ٢٦٤ .

أجري للرسول ﷺ عملية تطهير لقلبه بإزالة تلك العلقة السوداء ، ثم غسل القلب بماء زمزم ، فهو تطهير معنوي أخذ الشكل الحسي المادي الذي يطلع عليه الناس ويرونه ؛ لكي يحقق اطلاع الناس ومعرفتهم بتميزه عنهم [١] ، وإنما كان ذلك إعظاماً وتأهباً لما سيلقى عليه لا لإزالة أمر مستقذر لكمال خلقه [٢] .

٢) في هذه الحادثة إشارة إلى عصمة الرسول ﷺ منذ صغره ، فقد أزيل منه حظ الشيطان وهو لا يزال طفلاً مما يعني أنه ﷺ سينشأ نشأة لا نصيب للشيطان فيها ، محفوظاً حفظاً خاصاً يميزه عن غيره من الناس [٣] ، يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ عن هذه القصة : (وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان) [٤] .

٣) في حادثة شق الصدر درس في حدود العقل ، فإلى أي حدود نعمل عقولنا في النصوص الواردة وكيف نتعامل مع هذه النصوص ؟ .

في كل ما يرد من الشرع قرآناً كان أو سنة نبوية ثابتة فدورنا هو التسليم له دون التعرض لهذا النص بالتأويل الصارف له عن حقيقته ،

---

(١) انظر : الشامي ، سبل الهدي والرشاد ١ / ٤٢١ و ٢ / ٩٠ ، وأبو شهبة ، السيرة النبوية ١ / ١٩٩ .

(٢) انظر : الزرقاني ، شرح المواهب ٨ / ٦٧ .

(٣) انظر : مساعد الحميد ، هامش دلائل النبوة للأصبهاني ١ / ٢٥٤ .

(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٠٥ .

وقد تاه في هذا الأمر أقوام اعتمدوا على عقولهم ، وغفلوا عن واجب المسلم تجاه النص الشرعي ، يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وجميع ما ورد في شق الصدر ، واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك) [١] .

يقول ابن القيم في نونيته :

تباً لهاتيك العقول ، فإنها والله قد مسخت على الأبدان
تبـــاً لمن أضحى يقدمها على الآثار والأخبار والقرآن[٢]

والعقل دائماً لا يستقل بالعمل في الأمور الشرعية بل عمله تحت ضوء النص ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (والطريق إلى ذلك (أي إلى النجاة) الرواية والنقل ، إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل ، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه ، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة) [٣] .

❁❁❁

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٠٥ .
(٢) ابن القيم ، نونية ابن القيم ص ١٤ .
(٣) ابن تيمية ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع ابن قاسم ١ / ٦ .

ماذا نستفيد من قصة رعيه ﷺ للأغنام ؟ :

١) نقف أولاً مع قضية رعي الأغنام هذه التي أجمع عليها الأنبياء : « ما من نبي إلا ورعى الأغنام » ، لماذا اتفق هؤلاء الأنبياء جميعاً على رعي الغنم ؟ يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (قال العلماء : الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم)[(١)] .

فالأنبياء كانوا رعاة أغنام في صغرهم ؛ ليكونوا رعاة الإنسانية في كبرهم ، فـ(كما قدر لموسى ومحمد وغيرهما من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في ابتداء أمرهم رعاية الغنم ؛ ليتدرجوا من رعاية الحيوان البهيمي وإصلاحه ، إلى رعاية بني آدم ودعوتهم وإصلاحهم)[(٢)] .

فلكي يكون الداعية ناجحاً في دعوته لا بد بعد العلم من التدرج والتدرب العملي .

٢) في رعي الأغنام التعود على الحلم والشفقة ؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ألفوا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلاف طبائعها ، واختلاف عقولها ، فجبروا كسيرها ، ورفقوا بضعيفها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة ، فكان التدرج في ذلك برعيهم

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٤ / ٤٤١ .

(٢) السعدي ، المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ١٤٩ .

للأغنام التي هي مختلفة الطباع وفيها الضعيفة والعرجاء والتي ترغب تسلق الجبال ، وفيها التي لا تتمكن من تجاوز الأودية ، فيتعلم مع الأغنام تحقيق الرغبات المتفرقة ، تمهيداً وتدريجاً لمواجهة البشر في رغباتهم وقضاياهم المختلفة [١] .

٣) فيه تواضع الرسول ﷺ والتصريح بمنة الله عليه ، حيث ذكر بداية حياته ورعيه للأغنام ، وإنك لترى بعض الأشخاص ليستنكف عن ذكر أيام حياته الأولى يوم كان صغيراً تكبراً وتعالياً ونسياناً لضعفه وحاجته ، وذلك الماضي لابد أن يذكر حتى يعرف الشخص قيمته وبدايته ، فيشكر نعمة الله عليه ، ويذكر ماضيه وضعفه ، فلا يتعالى على الفقير ؛ لأنه كان فقيراً ، ولا يتكبر على صغير ؛ لأنه كان صغيراً .

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ ؛ ليتحدث إليه ، فأصابه خوف من الرسول ﷺ ، فقال الرسول : « هون عليك ، فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » [٢] .

وإن من مداخل الشيطان على الشاب المسلم تسمية الأشياء الممنوعة بغير مسمياتها الشرعية ، حتى يسهل له الوقوع فيها وهو لا

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٤ / ٤٤١ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه ٢ / ١١٠١ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢ / ٢٣٢ ، رقم ٢٦٧٧ ، والقديد هو اللحم المملوح المجفف في الشمس كما في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤ / ٢٢ .

يشعر ، فيأتيه الشيطان ويقول له : إن من قوة الشخصية أن لا تتحدث إلى الصغير ، ولا تتواضع للفقير ، ولو رآك الناس بهذه الصفة لفقدت شخصيتك ، ما الفرق هنا بهذا المعنى بين قوة الشخصية والكبر؟ المضمون والنتيجة واحدة ، ولكن تسمية الشيء بغير اسمه الصحيح سوغت الوقوع فيه دون الانتباه لهذا المحذور .

٤) رعي الأنبياء للأغنام منذ صغرهم واعتمادهم في مكسبهم على أنفسهم يشعر بأهمية اعتماد الداعية إلى الله على نفسه ، وأن لا يتعلق بما في أيدي الناس ؛ لأنه لو تعلق أو مالت نفسه إلى ما في يد غيره لجامله ، والدعوة لا مجاملة فيها ، والداعية يربأ بنفسه أن يعيش على صدقاتهم وأعطياتهم [1] ولن يتقبل الناس ممن يوماً يأخذ صدقاتهم ، ويوماً يقف يعظهم ويذكّرهم الآخرة ، ويحذّرهم من الركون إلى الدنيا .

ولأجل ذلك لم يكن في مصدر رزق الرسول ﷺ منة للكفار يذكرونه بها ، بل قد كان بينهم يعتمد على نفسه ، لم تمتد له يد كافر بعطاء أو منة يمتن عليه بها فيما بعد .

❁❁❁

(١) انظر : السباعي ، السيرة النبوية دروس وعبر ص ٣٩ .

ماذا نستفيد من قصة زواج الرسول ﷺ بخديجة رضي الله عنها ؟ :

١ . لقد سمعت خديجة ـ رضي الله عنها ـ الكثير من الأخبار عن صدق الرسول ﷺ ، وعن أمانته ، فبعثت إليه ؛ ليتاجر لها ، وبعثت معه غلامها ميسرة ، فعاد هذا الغلام يحدثها بما رأى عياناً من الصدق والأمانة ، وحسن الخلق ، هذا يدلنا على رجاحة عقل هذه المرأة التي بادرت إلى التعامل مع الرسول ﷺ لما علمت أمانته وازدادت قناعتها بأمانته وصدقه لما أخبرها غلامها ميسرة الذي سافر مع الرسول ﷺ مدة من الزمن ورأى منه في السفر الصدق والأمانة .

وقد شهد رجل عند عمر ﷺ ، فقال : من يزكيك ؟ قال رجل : أنا ، فقال : هل سافرت معه؟ فقال : لا ، قال : عاملته بالدرهم والدينار ؟ قال : لا ، قال : والله الذي لا إله إلا هو ما تعرفه [(١)] ، فالسفر هو الذي يكشف حقيقة الرجل ، ويظهر خفاياه ولذلك فالداعية يأخذ من أناة خديجة ـ رضي الله عنها ـ درساً دعوياً مفيداً في التأني وعدم العجلة .

يقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح للأشج (أشج عبد القيس) : « إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » [(٢)] ، يقول الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه لهذا الحديث : (وأما الحلم فهو العقل ، وأما الأناة فهي التثبت وترك العجلة) [(٣)] .

---

(١) انظر : ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ص ٢٣٠ .
(٢) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي ١/١٨٩ .
(٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ١/١٨٩ .

وكان الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ يقف عند الناس وهم يطوفون على قبر زيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قرب العيينة ويقول : (الله خير من زيد) ويكتفي بهذه العبارة ، فلم يتعجل في بداية دعوته ـ رحمه الله تعالى ـ رغم عظم هذا المنكر بل هو أعظم المنكرات وهو الشرك [١] .

٢. ورد في بعض كتب السير أن زواج الرسول ﷺ بخديجة ـ رضي الله عنها ـ كان بدايته عرضاً من بعض معارفها على الرسول ﷺ الزواج منها ـ وأياً كان الأمر ـ فهو يذكرنا بأهمية حرص الأولياء على تزويج بناتهم ولو عن طريق العرض ، فقد كسبت خديجة ـ رضي الله عنها ـ بهذا الزواج شرفاً عظيماً ، وأصبحت زوجة لأفضل الخلق ، وأماً للمؤمنين ، ولقد رأينا هذا العرض يرد في القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام مع صاحب مدين : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [٢] ، فإن هذا الولي لهاتين البنتين لما رأى هذا الرجل الصالح موسى ـ

---

(١) انظر : الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، خمس رسائل في التوحيد والإيمان (الرسالة الأولى أصل دين الإسلام وقاعدته ص ٣٣٩ ، مطبوعة ضمن مجموعة التوحيد) .

(٢) سورة القصص ، الآية رقم (٢٧) .

عليه السلام ـ سعى إليه ، واجتهد في تزويجه إحدى ابنتيه رغبة في كسب الرجل الصالح ولم ينتظر حتى يأتي الخاطب .

وفي السيرة : نجد أن عمر بن الخطاب ﷺ يعرض ابنته على عثمان بن عفان ﷺ ويعرضها على أبي بكر الصديق ﷺ ثم يتزوجها الرسول ﷺ [(١)] .

ولذلك فإن من حق بناتنا وأخواتنا أن نسعى لهن في الزواج ، ومجتمعاتنا الإسلامية يكثر فيها البنات العوانس اللاتي بقين بلا زواج بسبب أن الأب أو الأخ الأكبر لا يتحرك لبناته أو لأخواته ، يطلب لهن الشاب الصالح ، ويرى في ذلك عيباً أو نقصاً ولكن على الرجل أن يحسن طريق عرض ابنته أو أخته على من يريد ، وأن يكون العرض غير مباشر ، وبطريقة تحمي الفتاة والأسرة بكاملها من أن يساء إليها فيما بعد .

٣. إن في هذا الزواج درساً في أهمية اختيار الرجل للزوجة الصالحة والمرأة للزوج الصالح ، فالرسول ﷺ كما نرى اختار امرأة عمرها أربعون عاماً أي تكبره بخمسة عشر عاماً ، وقد تزوجت قبله مرتين ، ومع ذلك يختارها زوجة له ؛ لطهارتها وعفتها .

وخديجة ـ رضي الله عنها ـ يتقدم لها الكثير من أشراف قريش وسادتها ، وهي المرأة الغنية ولكنها ترفض ، وعندما عرفت الأخلاق العالية والصفات الحميدة في محمد ﷺ حرصت عليه ورغبت فيه .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٨ / ٣٠ .

إذاً : هناك نقطة التقاء في اختيار الزوج واختيار الزوجة ، أكدها حديث الرسول ﷺ : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[(١)] .

وفي المقابل ، قال ﷺ مخاطباً الأولياء : « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض »[(٢)] ، فالرجل قدوته الرسول ﷺ في اختيار الزوجة والمرأة قدوتها خديجة ـ رضي الله عنها ـ في اختيار الزوج .

٤. لقد كان لهذا الزواج الذي تم وفق الاختيار السليم آثار عظيمة جداً ، فقد كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ البيت الذي يأوي إليه الرسول ﷺ بعد عناء الدعوة ، وحسبنا موقفها في أول يوم من أيام البعثة حينما طمأنته ، وقالت له : (كلا والله لا يخزيك الله أبداً) ، وكان يؤذى وهو يدعو إلى الله ، فإذا عاد إلى المنزل وجد المرأة التي تطمئنه ، وتشد من عضده وتثبته ، ولم تكن المرأة اللوامة العائقة عن الدعوة إلى الله .

ثم أيضاً كان موقف الرسول ﷺ معها أكمل الوفاء ، فقد كان يكثر ذكرها بعد موتها ، ويصل أقاربها ، حتى كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تغار من ذلك كما مر في فضائل خديجة ـ رضي الله عنها ـ وهنا

---

(١) صحيح البخاري ، تحقيق مصطفى البغا ١٩٥٨/٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه ٦٢٢/١ وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٣٣٣/١ ، رقم ١٦٠١ .

يعرف حالياً (بالحجر) ، ورفعوا باب الكعبة عن الأرض ، ونقصوا منها قليلاً من الجهة الشرقية وهو ما يسمى بالشاذروان [١] .

ماذا نستفيد من حادثة بناء الكعبة و تحكيم الرسول ﷺ في هذا النزاع الذي وقع بين قبائل قريش ؟:

١. عندما قالوا : لا تدخلوا في بناء هذا البيت مكسباً حراماً من كسب بغي أو مظلمة أو ربا ، يدلنا هذا على أن العرب كانوا يدركون دناءة كسب الربا ولذلك فهم يحذرونه في بناء الكعبة ، ماذا نقول عندما نرى العرب قبل أن يكرمهم الله بنعمة الإسلام يعرفون دناءة الكسب الربوي ويحرصون على تطهير أمورهم المهمة منه ، واليوم بعد أن من الله على الأمة بالإسلام وكثرت الأموال إذا بالربا ينتشر بين المسلمين ،

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٢٠٩-٢١٤ ، وابن حجر ، فتح الباري ٣ / ٤٤١ و ٧ / ١٤٦ ، والسهيلي ، الروض الأنف ١/٢٢١-٢٢٩ ، ومحمد أبو شهبة ، السيرة النبوية من ص ٢٢٧ - ٢٢٩ ، ومحمد الصوياني ، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة من ص ٤١ - ٤٤ .

في بداية عام ١٤١٧هـ أجري بعض الترميمات ، وتجديد بعض الجدر الداخلية للكعبة ، وقد شرفني الله ـ جل شأنه ـ بدخول الكعبة في ذلك الوقت ، والمشاركة في بناء بعض الجدار الداخلي ، وذلك ببناء حجرين ، ووضعهما في مكانهما ، وكان معي ابني خالد بن زيد الزيد ، وشارك بوضع ثلاثة أحجار في مكانها ، وذلك بعد صلاة العشاء ، ليلة السبت ١٩/١٨ ربيع الأول ١٤١٧هـ . فلله الحمد والمنة .

ويصبح أمراً غير منكر أن يكون لبعض المسلمين مساهمة في بنك أو شركة تعتمد الربا أساساً لكسبها .

كفار مكة يجمعون على دناءة الربا ، ويتحرزون من إدخال كسبه في عمارة الكعبة ، وفي الأمة الإسلامية من يتعاطى الربا في مطعمه ومشربه ، ومطعم أولاده ومسكنهم ، ما الجديد إذاً الذي أضافه لنا الدين إذا كنا لم نسمع لتوجيهاته في أمر كان محترزاً حتى في الجاهلية ؟ إنه الغزو اليهودي لأموالنا ، فأصبح المال فتنة تُنْسِي البعضَ دينَه ، فيقدم مكسباً محرماً على أمر شرعي .

٢. قد يبدو لبعض الناس أن هذا الرأي الذي جاء به الرسول ﷺ سهل ومن الممكن أن يهتدي إليه كل إنسان ، لكن لو تذكرنا أن سادة قريش وعقلاءها جلسوا في الحرم ثلاثة أيام وهم يتداولون الأمر فيما بينهم حتى تقاسموا وتحالفوا على القتال ، ولم يتوصلوا إلى هذا الرأي ، ثم يأتي محمد ﷺ وهو يصغرهم في السن ويأتي بهذا الحل التوفيقي الذي أشعر الجميع باشتراكهم في وضع الحجر ، ونزع فتيل القتال الذي كاد يقع بينهم ، مما يبين التميز الكبير للنبي ﷺ .

٣. إن الرأي الجماعي الذي صدر من القرشيين وهم حول الكعبة حينما أقبل محمد ﷺ وقالوا جميعاً : (رضينا جاء الأمين ، رضينا جاء محمد) هذا الرأي في محمد ﷺ لابد أن نقف عنده ونقول :

وذلك أن قريشاً كانوا يقفون بمزدلفة يوم عرفة ، ولا يخرجون خارج الحرم إلى عرفات يتميزون بذلك عن سائر الناس ، فوفق الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ للصواب قبل البعثة النبوية .

٦. كان الرسول ﷺ معروفاً بالصدق ، فلم يشهد عليه مرة واحدة بالكذب ، يؤكد هذا أن الرسول ﷺ صعد الصفا فهتف يا صباحاه ، فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه ، فقال : « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين عذاب شديد »[(١)] ، فهم هنا يقولون في مشهد عام : ما جربنا عليك كذباً ، بل أنت معروف بالصدق من صغرك .

نأخذ مما سبق :

١) أن النبي ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشر كلها ، فهو شاب كسائر الشباب ، يخالط القوم ويتعامل معهم ، ويشعر بما يشعر به الشباب ، وتحدثه نفسه بما تحدث به نفوس الشباب في الأمور العادية .

الشديد في دينه وكانت قريش تسمى الحمس ، وكانت لا تجاوز الحرم ويقولون : نحن أهل الله لا نخرج من الحرم وكان سائر الناس يقفون بعرفة ، وهم يقفون في مزدلفة ، ابن حجر ، فتح الباري ٥١٦/٣ .

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨ / ٣٣٧ ، حديث رقم ٤٤٧١ ، كتاب التفسير ، باب سورة تبت يدا أبي لهب .

٢) أن الله سبحانه وتعالى قد عصمه من جميع مظاهر الانحراف ، فهو قبل أن تأتيه العصمة من قبل الوحي أيضاً لديه عاصم آخر من الله سبحانه وتعالى يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه نفسه ، أو قد يميل إليه بسبب ضغوط مجتمعه ، فيعصم منه ، ويحال بينه وبينه قبل الوقوع فيه .

٣) أنه عاش ﷺ في شبابه متميزاً بالأخلاق الحسنة الفاضلة وسلامة الفطرة الكارهة للوثنيات والشركيات والخرافات ، فنشأ نقياً نزيهاً نظيفاً معروفاً بالصدق والأمانة ، وكلها تمهد للرسالة التي سيحملها ﷺ .

٤) وجود هذه الصفات في الرسول ﷺ بعناية إلهية ، وارتباطها ببعثته ﷺ تدلنا على أهمية هذه الأخلاق للداعية ؛ ولذلك فاستقامة الداعية ، وحرصه على الصدق والأخلاق الفاضلة مهمان جداً في إصغاء الناس له ، فلا يجد الحاقد ولا الناقد مغمزاً يغمز به الداعية بشيء سابق في حياته [١] .

٥) كان من اليسير أن يولد الرسول ﷺ وقد نزعت منه محبة ما يحبه الشباب من الرغبة في اللهو، والتهاون في التعري ، وينشأ بعيداً عن ذلك ، ولكن قد يفهم هذا على أنه انطواء وانعزال عن المجتمع ، ومركب نقص في الشخص ، لكن أن توجد هذه الميول فيه ثم يعصم

---

(١) انظر : السباعي ، السيرة النبوية دروس وعبر ص ٣٩ - ٤٠ .

تاريخ البعثة النبوية :

قبل الحديث عن فوائد الحديث نشير إلى تحديد وقت البعثة النبوية :

أ. عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم الاثنين فقال : « ذلك يوم ولدت فيه ، ويوم أنزل علي فيه » [١] وحينئذ فبدء الوحي كان يوم الاثنين .

ب. أما تحديد الشهر فقد اختلف فيه ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (واختلف في شهر المبعث فقيل : لثمان مضين من ربيع الأول ، سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرين ، وقيل : بل كان ذلك في رمضان، واحتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [٢]، قالوا : أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته ، أنزل عليه القرآن [٣] ، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده ، وهو شهر ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة ، ووحي اليقظة في رمضان [٤] .

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٨١٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية رقم (١٨٥) .

(٣) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ١ / ٧٨ .

(٤) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٧ ، والشامي ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٣٤٠ .

فوائد حديث بدء الوحي :

وبعد أن تحدثنا عن تاريخ البعثة النبوية نعود إلى فوائد حديث بدء الوحي ؛ لنلحظ فيه ما يلي :

١. لقد غط جبريل عليه السلام الرسول ﷺ ثلاث مرات ، وانتزع شريح القاضي من هذا أن لا يضرب الصبي إلا ثلاثاً على القرآن الكريم كما غط جبريل الرسول ﷺ ثلاثاً [١] .

٢. أن العلم هو عنوان هذا الدين ، فقد استفتح الوحي بكلمة (اقرأ) ، فالمسلم إذاً مطالب بالقراءة والاطلاع ، تحقيقاً لهذا التوجيه الذي استفتح به الوحي الرباني لمحمد ﷺ بل والعجيب أن هذه السورة التي افتتح بها الوحي وكانت بدايتها الأمر بالقراءة تختم بالأمر بالسجود وذلك لأهمية القراءة وأهمية السجود ، وجاءت على منوال هذه السورة الصلاة ، فكل ركعة يركعها المسلم إنما تبدأ بالقراءة ، وتنتهي بالسجود ، مثل سورة اقرأ : بدأت بالقراءة وانتهت بالسجود ، وذلك لعظم مكانة هذين الأمرين في الإسلام .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وأشرف أفعالها (أي الصلاة) السجود ، وأشرف أذكارها القراءة ، وأول سورة أنزلت على النبي ﷺ افتتحت بالقراءة ، وختمت بالسجود ، ووضعت الركعة على ذلك ، أولها قراءة وآخرها سجود) [٢] .

---

(١) انظر : العيني ، عمدة القارئ ١ / ٦٢ .

(٢) ابن القيم ، الكلام على مسألة السماع ص ٢٠٤ ، ونقل أيضاً كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية حول المعنى ذاته في ص ٢١٩ من المرجع نفسه .

المبحث الثاني

الرسالة

بعد فترة الوحي نزل جبريل على رسول الله ﷺ ، قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني ، فأنزل الله تعالى : (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله تعالى : (والرجز فاهجر) . فحمي الوحي وتتابع)[١] .

ماذا نستفيد من هذا الموقف :

١) المقصود من فتور الوحي عن الرسول ﷺ إنما هو ؛ ليذهب عنه الروع وليحصل له التشوق على العود ، فلما ذهب عنه الروع والخوف واطمأن الرسول ﷺ وظهرت الحقيقة له ، وبدأ رسول الله ﷺ في الترقب لمجيء الوحي والاستعداد له جاء جبريل بالوحي[٢] .

٢) وثمت أمر آخر من حكمة فترة الوحي وهو التأكيد على اختصاص الله وحده بالوحي متى شاء أنزله ، وأن محمداً ﷺ لا يملك تقديمه ولا تأخيره .

---

(١) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ١ / ٢٧ ، كتاب بدء الوحي .
(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٧ .

وقد نشط هؤلاء السابقون في الدعوة إلى الله سراً ، فقد أسلم على يد أبي بكر الصديق ﷺ جمع من الصحابة منهم :

عثمان بن عفان ﷺ ، والزبير بن العوام ﷺ ، وعبدالرحمن بن عوف ﷺ ، وسعد بن أبي وقاص ﷺ ، وطلحة بن عبيدالله ﷺ ، وهؤلاء الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق ﷺ هم من العشرة المبشرين بالجنة .

وكان من أوائل المسلمين : أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ ، وأبو سلمة ﷺ ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وأخواه قدامة وعبد الله وسعيد بن زيد وغيرهم ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ [(١)] .

وجميع هؤلاء أسلموا سراً ، وكان يجتمع بهم الرسول ﷺ متخفياً يتلو عليهم ما ينزل عليه من الوحي ، ويرشدهم إلى الدين .

ولنا هنا في هذه القصة من السيرة ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : نطرح سؤالاً : لماذا بدأت الدعوة سرية ؟

الجواب عن ذلك :

١. لئلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم ، ويثيرهم عليه ، فيئدون الدعوة في مهدها .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١/ ٢٦٨-٢٦٩ .

٢. لكي يتكون للدعوة أنصار وأعوان يقفون معها ويحمونها إذا جهر بها الرسول ﷺ وظهر لها أعداء يحاولون القضاء عليها [١] .

ولكن هذا يحتاج إلى توضيح :

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري : (لا دليل لمن يرى سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم من سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات ؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا أن يؤذنوا أو يصلوا ، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة ، فجهروا ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين) [٢] ولذلك فالأصل في الدعوة الإعلان ، أما السرية فلا تكون إلا لضرورة يقدرها أهل العلم وهي استثناء وليست أصلاً [٣] .

من هذا الموقف نستفيد ما يلي :

١. أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فإذا أمرت بأمر من أمور الدعوة فافعل منه ما تستطيع ، وفق المنهج .

٢. عدم تعجل النتائج ، فالرسول ﷺ وهو المكلف بهذه الدعوة كان المقتضي لحبه للدعوة ، وحماسه لها ، ورغبته في استجابة الناس وخوفه عليهم أن ينذر ويدعو كل من يلاقيه في الطريق أو عند الكعبة

---

(١) انظر : السيد الوكيل ، تأملات في السيرة النبوية ص ٤٢ / ٤٣ .

(٢) أبو بكر الجزائري ، هذا الحبيب يا محب ص ٩٩ .

(٣) انظر : ناصر العقل ، مناهج أهل الأهواء والافتراق والبدع وأصولهم وسماتهم ، الطبعة الثانية (الرياض ، دار الوطن ١٤١٧هـ) ص ١٤٣ .

وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[١] فأعلن ﷺ بالدعوة وجاهر قومه بالعداوة واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين)[٢].

نقف مع هذا الدرس من السيرة ؛ لنأخذ منه ما يلي :-

١) إن الرسول ﷺ قضى ثلاث سنوات يدعو إلى الله سبحانه وتعالى سراً ، ثم بعد ذلك أعلن دعوته ، وجهر بها للناس من عشيرته ومن غيرهم ، وكانت الدعوة سرية وجهرية تركز على ربط الناس بالله جل شأنه ، فلا تتعلق القلوب بغيره ، ولا ينفع الفرد قبيلته ، أو عشيرته ، كل ذلك فيه توجيه للناس إلى توحيد الله ، وإفراده بالعبودية ، وتلك قضية مهمة ، هي قضية العقيدة التي تعني تقرير العبودية لله سبحانه وتعالى ، فلا تعبد إلا إياه ، ولا تخضع إلا له سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، نأخذ هذا من قوله تعالى : (قم فأنذر) ، وقوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، وقوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) ، فكلها آيات بيان ، آيات دعوة توضح أن أهم قضية وأول قضية دعا إليها الرسول ﷺ هي قضية التوحيد وهي قضية الرسل قبله ، برهان هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٣] وكذلك ينبغي أن تكون هي قضية كل داعية إلى الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الحجر ، الآية رقم (٩٤) .
(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ١ / ٨٦ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية رقم (٢٥) .

فالتوحيد إذا صلح ، صلح ما بعده من الأعمال ، وإذا لم يتحقق التوحيد ، فلا قيمة لأي عمل بدونه : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [١] ، يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (كلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتم ، فمن لقيه لا يشرك به شيئاً البتة غفر الله له ذنوبه كلها كائنة ما كانت ولم يعذب بها) [٢] .

ويقول أيضاً ـ رحمه الله تعالى ـ في زاد المعاد : (ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه بل لو خرج منها لعاد خبيثاً كما كان ، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه ، فلذلك حرم الله على المشرك الجنة) [٣] .

فلذلك نقول لكل داعية إلى الله تعالى : عليك بالتوحيد ، ابدأ به وأصلح عقائد الناس ، فهي القضية الأساسية لكل مهتد بهدي الرسول ﷺ .

٢) في البدء بالأقربين مع أن رسول الله ﷺ رسول للأمة بكاملها توضيح لدرجات مسؤوليات الشخص [٤] التي تبدأ من الأهل والأقارب ، فالشخص مسؤول عن أهله زوجته ، وأولاده ، ووالديه

---

(١) سورة الفرقان ، الآية رقم (٢٣) .

(٢) عبد المنعم بن صالح العلي ، ، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ص ١٨٦ .

(٣) ابن القيم ، زاد المعاد ١ / ٦٨ .

(٤) انظر : البوطي ، فقه السيرة ص ١١٢ .

المبحث السابع

دار الأرقم

كثر الداخلون في الإسلام وكان لابد من مكان يجتمع فيه هؤلاء مع رسول الله ﷺ يعلمهم أمور دينهم ، وكان الرسول ﷺ لا يتمكن من الاجتماع بهم علناً ، فاختار الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي للاجتماع فيها ، وكانت على جبل الصفا وبابها خلفي يدخله الداخل فلا يُرى ، وقد اتخذها الرسول ﷺ مقراً للدعوة في السنة الخامسة من البعثة [١] ، يجتمع فيها الصحابة إلى الرسول ﷺ فيتعلمون منه القرآن الكريم والسنة ويقتدون به .

نقف هنا ؛ لنلحظ مدى اهتمام الرسول ﷺ بجمع الصحابة في مكان واحد ؛ لنستفيد ما يلي :

١. أهمية صلاة الجماعة في المسجد ، فشتان بين صلاة الفرد في منزله وحيداً وصلاته مع إخوانه المسلمين يتعلم منهم الكيفية العملية للصلاة ، وينمو بينهم السلوك الحسن والخلق الجميل ، فبالإمكان أن يدع الرسول ﷺ أصحابه كلاً منهم يؤدي عباداته بمفرده ، ولكن هذا لا يحقق قيام المجتمع المسلم المترابط ، ومبادرة الرسول ﷺ إلى هذا الأمر تدل على وجوب صلاة الجماعة في المسجد مع المسلمين [٢] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ١ / ٣٦٥ .

(٢) انظر: كتاباً مهماً قيماً للأستاذ الدكتور/ فضل إلهي ظهير ، أهمية صلاة الجماعة في ضوء النصوص وسير الصالحين ، أوضح فيه أن إقامة الصلوات الخمس مع الجماعات في المساجد من أوكد العبادات .

٢. أهمية الصحبة الصالحة في حياة المسلم ، والمسلم بحاجة إلى صحبة صالحة تذكره إذا نسي ، وتعلمه إذا جهل ، وتنبهه إذا غفل ، وقد قال رسول الله ﷺ : (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة) [(١)] ، ولذلك حري بالآباء والمربين أن ينتبهوا لجلساء أبنائهم وتلاميذهم .

٣. أهمية الترابط والتواصل بين المسلمين ، ويتأكد هذا بخاصة إذا كانوا في بلاد الغربة بين مجتمع لا يدين بالإسلام ، فعلى هؤلاء مسؤولية الاهتمام بالاجتماع فيما بينهم تعاونا على الخير وتثبيتا على طريق الهدى ، وتقوية لأواصر الأخوة ، ومحافظة على الإيمان في القلوب من أن يخبو أو يضعف ، عندما تكون الغالبية المحيطة بالمسلم فئة كافرة .

٤. أهمية التربية والتعاهد المستمر في عملية الإصلاح والتوجيه ، فلا بد في الإصلاح من التربية ، وليست عملية التربية المطلوبة سهلة ولا ميسورة ، وليست كلمة تقال ، ثم ينتهي واجب المعلم أو المربي أو الداعية ، بل على الدعاة والمربين والمعلمين أن يلحظوا المقصد المهم من دار الأرقم ، حينما حرص الرسول الكريم ﷺ على تعاهد

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٢٦ ، رقم ٢٦٢٨ .

صحابته ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم ؛ لتربيتهم وتوجيههم على عينه ، وهو درس مهم لكل من يقوم على التربية مسؤولاً كان أو أباً أو معلماً أو داعياً إلى الله جل شأنه .

❁❁❁

واستمر الحوار بين النجاشي والصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ حتى انتهى بفشل مكيدة كفار قريش ، ورجوعهم خاسرين ، وبقاء المسلمين في الحبشة آمنين مطمئنين[(١)] .

نقف مع هذه الهجرة ؛ لنستفيد منها ما يأتي :

١) لم يتمكن صحابة رسول الله ﷺ من عبادة ربهم بأمن وطمأنينة في مكة بسبب إيذاء قريش لهم ، ولم يبق أمام هؤلاء الصحابة إلا ترك الوطن والأهل والمال ، من أجل العقيدة ، أو ترك العقيدة من أجل الوطن والأهل والمال ، فاختاروا العقيدة وفارقوا أوطانهم وأهليهم من أجل المحافظة على دينهم ، وهكذا العقيدة فوق الأهل والمال والوطن .

---

(١) حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ الذي اختصرته هنا أخرجه بطوله الإمام أحمد في مسنده ١ / ٢٠٢ و ٥ / ٢٩٠- ٢٩٢ وقال الحافظ الهيثمي في المجمع ٦ / ٢٤- ٢٧ : (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع) وقال عنه أحمد محمد شاكر : (إسناده صحيح) انظر : مسند الإمام أحمد ، تحقيق أحمد شاكر ٣ / ١٨٠ ، رقم ١٧٤٠ . وقد ذكر ابن إسحاق وغيره ردة عبيد الله بن جحش وكان أحد المهاجرين إلى الحبشة وموته في الحبشة على النصرانية ، إلا أن محمد بن عبد الله العوشن في بحث له بعنوان (تحقيق دعوى ردة عبيد الله بن جحش) منشور في مجلة البيان الصادرة عن المنتدى الإسلامي بلندن عدد (١٨٢) شوال ١٤٢٣هـ ، ص٢٢- ٢٤ قال في نهاية البحث : (مما سبق يتبين – والله أعلم – أن قصة ردة عبيد الله بن جحش لم تثبت لعدة أدلة منها ...) وذكر أربعة أدلة ، والحكم بالردة على شخص ليس بالأمر السهل فضلاً عن أن يكون صحابياً ومن المهاجرين الأوائل ، ونسأل الله السلامة .

٢) ماذا نقول لأولئك الذين تركوا أوطانهم الإسلامية وهجروها إلى بلاد الكفر إعجاباً بالكفار ، وتركوا بلادهم المسلمة ؟ ماذا يقال لهؤلاء ونحن نتذكر هجرة هؤلاء الصحابة إلى بلاد الحبشة بحثاً عن مكان آمن يعبدون الله فيه ، وصحبة صالحة ولتكوين مجتمع مسلم يكون فيه الجار مسلماً والحي بأكمله مسلماً ؟ .

٣) إن هؤلاء الصحابة الذين خرجوا من مكة إلى الحبشة بينوا لنا عملياً كيف أن المسلم لا يتكيف مع المجتمعات غير المسلمة فيما يخالف دينه ، بل هو الذي يسعى إلى تكييف تلك المجتمعات ؛ لتصبح إسلامية .

ومثل هذا ينطبق حتى على المجالس التي يجلس فيها المسلم ويرى فيها بعض المنكرات ، فهو إما أن يجاري ويسكت ويصبح بالتالي كيَّف نفسه فيها بما يخالف أمر الله سبحانه وتعالى ، أو ينكر وإذا لم يستطع الإنكار يخرج عنها ويتركها ، فهجرة الصحابة إلى الحبشة درس لنا في التعامل مع المجتمعات غير الإسلامية بل وحتى مع المجالس التي تقوم على المعاصي والمنكرات .

٤) في ملاحقة كفار قريش للصحابة في الحبشة ومحاولة ردهم إلى مكة دلالة واضحة على أن العداوة بين الكفار والمسلمين ليست عداوة شخصية ، بل هي عداوة دينية ، ولو كانت عداوة شخصية لفرح الكفار بخروج المسلمين وابتعادهم عنهم ، ولكن العداوة هنا عداوة

الثانية : الذين كذبوا الرسول ﷺ في قصته الإسراء واستبعدوا وقوعه ، غفلوا عن شيء مهم في الآية ، فالله سبحانه وتعالى يقول : (سبحان الذي أسرى بعبده) فالله جل شأنه هو الذي أَسْرَى بعبده ، ولم ينسب الرسول ﷺ الإسراء إلى نفسه [١] فالذي يكذب بالإسراء ويستبعده ، إنما يطعن في قدرة الله سبحانه وتعالى ، وليس في قدرة الرسول ﷺ .

الثالثة : وقع في الإسراء والمعراج العديد من الآيات الخارقة للعادة وفي ذلك يقول ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ : (وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك) [٢] .

الرابعة : كان من حكمة الإسراء قبل المعراج (إرادة إظهار الحق لمعاندة من يريد إخماده ؛ لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح ، فلما ذكر أنه أسري به إلى بيت المقدس سألوه عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك فلما أخبرهم بها ، حصل التحقيق

---

(١) انظر : القسطلاني ، المواهب اللدنية ٣ / ١٥ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٠٥ .

بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة ، وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره)[١] .

الخامسة : في الإسراء إلى بيت المقدس ثم العروج منه إلى السماء دلالة على ما لهذا المسجد من مكانة وأهمية خاصة ينبغي أن يدركها المسلمون في كل مكان ، فلا يتهانوا بالمسجد الأقصى أولى القبلتين ومسرى رسول الله ﷺ .

السادسة : (تضمنت قصة المعراج العديد من الخوارق ، وقد سلك البعض في محاولة الرد على منكريها إقامة الدليل على أن ذلك الأمر جار على ناموس الطبيعة المطردة ، وأنه مألوف في الخلق معروف ، وفي الواقع حينما نسلك هذا المسلك نكون قد أخرجنا هذا الأمر عن أن يكون معجزا ، وأن يكون من خصائص النبوة .

والطريقة الصحيحة أن يكون المعترض إما مؤمنا بالله وبالرسالة وبالرسول ﷺ ، أو يكون منكرا ذلك .

فإن كان الأول لم يكن علينا أكثر من أن نبين له أن هذا الأمر قد جاء بسند صحيح عن صاحب الرسالة .

وإن كان الآخر ، فهو إلى إقامة الدليل على الله وعلى رسوله أحوج منه إلى إقامة الدليل على المعراج وما فيه .

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٠٠ - ٢٠١ ونسبه إلى ابن أبي جمرة ، وانظر : ابن تيمية ، الجواب الصحيح ٤ / ١٦٤ – ١٦٥.

ليصبح الناس حينئذ إخواناً كما قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[١] . فقه السيرة في العرض على القبائل :-

الرابعة : أن الرسول ﷺ يُبْعَثُ في مكة بين قبيلته ويستمر يعرض عليهم ﷺ نفسَه أكثر من عشر سنوات ولم يجد منهم إلا استجاباتٍ فردية ، ويجد العداوة الجماعية من غالبيتهم ، ولكن النصرة تأتي من قبيلة أخرى خارج مكة ؛ ليدلنا هذا على أن دعوة محمد ﷺ ليست دعوة خاصة بل هي دعوة عالمية للناس كافة ، يعرضها الرسول ﷺ على ابن مكة كما يعرضها على سائر القبائل الوافدة إلى مكة ومن استجاب لها وناصرها فهو أولى بها .

الخامسة : من هذا الموقف ندرك الجهود الكبيرة التي كان يبذلها الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فقد كان يتجول ليلاً ونهاراً ، دون أن يؤثر فيه كثرة الإعراض ، أو يتسرب إليه شيء من اليأس .

السادسة : أن الفرج يأتي في زمان أو مكان قد لا يتوقعه الشخص ، فالرسول ﷺ كان يعرض على القبائل ، ثم مر على نفر من الخزرج ، فعرض عليهم نفسه كما كان يعرض على سائر القبائل ، فإذاً بهذه الفئة تكون بداية الفرج ونواة الخير التي قبلت هذه الدعوة وناصرتها ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم (١٠٣) .

ثـم أذن الرسـول ﷺ في الانصـراف قـائلاً : « ارفضـوا [١] إلى رحالكم » فقال العباس بن عبادة بن نضلة : يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لم نُؤْمَرْ بهذا » [٢].

نقف مع أحداث بيعة العقبة الثانية ؛ لنأخذ منها الفوائد التالية :

الأولى : بيعة العقبة الثانية من أهم الأحداث في الإسلام ، فمنها فُتِحَ الطريقُ أمام الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ للهجرة إلى المدينة ، ثم هجرة الرسول ﷺ ، ومنها كانت غزوة بدر الكبرى .

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه : (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهدَ بدرٍ وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها) [٣] قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه لهذا الحديث : (لأن من شهد بدراً وإن كان فاضلاً بسبب أنها أول غزوة نصر فيها الإسلام لكن بيعة العقبة كان سبباً في فشو الإسلام ومنها نشأ مشهد بدر) [٤].

---

(١) أي تفرقوا .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٦٢ ، انظر : سيرة ابن هشام المطبوعة مع الروض الأنف ٢ / ١٩٢ ، وابن الجوزي ، الوفاء بأحوال المصطفى ١ / ٣٦١ ، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٢- ٤٥ وقال ص ٤٥ : (رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري ٧ / ٢١٩ ، رقم ١٨٨٩ .

(٤) ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٢٢١ .

الثانية : الشرط الثاني من شروط بيعة العقبة الثانية هي النفقة في العسر واليسر ، بذل المال في سبيل الله سبحانه وتعالى ، (ومن أعظم الجهاد ، الجهاد المالي ، والله تعالى قَدَّمَ الجهادَ بالمال على الجهاد بالنفس ، فإن النفقة في سبيل الله أفضل النفقات على الإطلاق) [١] والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [٢] ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٣] .

الثالثة : في عقد البيعة بيان لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين ، يقول الله سبحانه وتعالى في صفات المؤمنين : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ

---

(١) السعدي ، الجهاد في سبيل الله ص ١٦٩ ، المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي ، القسم الخامس ، المجلد الأول ، وانظر : ابن تيمية ، منهاج السنة ٨ / ٢٣٠ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٥) .

(٣) سورة الصف ، الآيتان رقم (١٠ - ١١) .

دخلوا وتآمروا فيما بينهم على أن يلقوا عليه صخرة من فوق الجدار ، فأتى رسولَ اللهِ ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم [١] .

فتحصنوا فأمر بقطع النخيل والتحريق ، وذكر ابن إسحاق أنه حاصرهم ست ليال وكان ناس من المنافقين بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنعوا ، فإن قُوتِلْتُمْ قاتلنا معكم ، فتربصوا فقذف الله في قلوبهم الرعب فلم ينصروهم ، فسألوا أن يجلوا عن أرضهم على أن لهم ما حملت الإبل فَصُوْلِحُوْا على ذلك [٢] وبذلك قضى الله على هذه الفئة من اليهود .

أما يهود بني قريظة فسيأتي الحديث عنهم إن شاء الله تعالى بعد الحديث عن غزوة الأحزاب لارتباط غزوة الأحزاب بغزوة بني قريظة .

الفوائد من هذا المقطع من السيرة النبوية :

الأولى : من هذه المعاهدة التي كتبها الرسول ﷺ مع اليهود ندرك أن الإسلام تشريع كامل فهو كما نظّم علاقة المسلم بربه ، فهو أيضاً ينظّم علاقة المسلم بأخيه المسلم وعلاقة المسلم بمن معه في المجتمع سواء داخل المجتمع الإسلامي أم خارجه .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ١٩١ - ١٩٢ ، وابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣٣١ ، والبيهقي ، دلائل النبوة ٣ / ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٧ / ٣٣١ .

وهذه المعاهدة التي بادر إليها الرسول ﷺ رد عملي على أولئك الذين يريدون أن يحصروا الإسلام في نطاق العبادات التي تُؤَدَّى في المسجد دون أن يكون للإسلام أي تأثير على تنظيم الحياة وشؤونها .

الثانية : لقد وادع الرسول ﷺ اليهود في المدينة وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم وإن هذه الوثيقة التي نقلنا جزءاً منها وضعها النبي ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً وهي وثيقة جديرة بالإعجاب ، قرر الرسول ﷺ فيها حرية العقيدة لغير المسلمين ، وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة وحرمة المال ، وبذلك سبق الإسلام إلى تقرير حقوق الإنسان ، ورعايتها وحفظها والمحافظة عليها .

فبمقتضى هذه الوثيقة أصبحت المدينة بلداً آمناً ، وأصبح كل المسلمين واليهود في أمن من الجانب الآخر وأصبح اليهود مُلْزَمِينَ بمعاونة المسلمين إذا ما دهم المدينةَ عدوٌ ، وعدم مساعدة المشركين ومناصرتهم [(١)] .

الثالثة : في هذه الوثيقة نجد تسامح [(٢)] الرسول ﷺ مع اليهود بأن وادعهم وتركهم في ديارهم آمنين ، دون تعرض لمعتقداتهم أو أموالهم ، وهو يقرر مبدأ التسامح الذي سلكه الإسلام عموماً حينما احترم الذميين وقرر لهم الحياة المطمئنة الآمنة في بلاد المسلمين وهذا لا يجده

---

(١) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ٥٩- ٦٠ .

(٢) انظر : د . مهدي رزق الله ، السيرة النبوية ص ٣١٨ .

المسلمون الذين يكونون أقليات في بلاد الكفر وأخبار معاناة إخواننا المسلمين في تلك البلاد من تضييق عليهم في معيشتهم وتعليمهم تصم الآذان بل نجد من هؤلاء الأعداء من يتدخل حتى في أسماء أولاد المسلمين ويمنعهم من التسمية بالأسماء الإسلامية ، ومعاناة إخواننا المسلمين في البوسنة والهرسك وكوسوفا وكشمير وغيرها شاهد حي شهد عليه العالم أجمع .

الرابعة : وفاء الرسول ﷺ بالعهد الذي التزم به لليهود ولغيرهم ، وهذا ما عرف به الرسول ﷺ وهو كذلك ما أكد عليه القرآن الكريم وحديث المصطفى ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [(١)] وقال ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أُؤْتُمِنَ خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » [(٢)] .

الخامسة : خُبْث اليهود وسوء طويتهم وعداوتهم الشديدة للإسلام والمسلمين ، فلم يمض على المعاهدة وقت يسير إلا وهم ينقضون العهد ويخونون الله ورسوله ولم يكتف اليهود بالكلام ، بل تجاوزوه إلى العداء العملي [(٣)] حيث تآمروا على قتل الرسول ﷺ ،

---

(١) سورة النحل ، الآية رقم (٩١) .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر ١ / ٨٩ ، رقم ٣٤ .

(٣) انظر : محمد عزة دروزة ، سيرة الرسول ﷺ ٢ / ١٨٧ .

الخامسة : كان تحويل القبلة فرصة لأعداء الإسلام لإثارة الشبهات [١] حول الإسلام والمسلمين ولأجل هذا ارتد بعض من أسلم ، قال ابن جرير : (قال ابن جريج : بلغني أن أناساً ممن أسلم رجعوا فقالوا : مرة هاهنا ومرة هاهنا) [٢] .

وفتنة إثارة الشبهات لا تزال حية يحاول أعداء الإسلام من خلالها صد المسلمين أو غيرهم عن هذا الدين ، و الشبهات تُدْفَعُ بالعلم الشرعي الذي يبطل كيد الأعداء .

السادسة : أن هذه القبلة التي هدى هذه الأمة لها (هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها ؛ لأنها أوسط القِبَلِ لأفضل الأمم كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب وأخرجهم في خير القرون ، وخصهم بأفضل الشرائع ، ومنحهم خير الأخلاق ، وأسكنهم خير الأرض وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل ، وموقفهم يوم القيامة خير المواقف) [٣] .

السابعة : في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [٤] آية لمحمد ﷺ إذ تضمنت الإخبار عن

---

(١) انظر : عبد العزيز الحميدي : المنافقون في القرآن الكريم ص ٥٤ و ٦ .

(٢) ابن جرير الطبري ، جامع البيان ٢ / ١٣ .

(٣) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٦٨ .

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم (١٤٢) .

عزة الشاعر ومنهم من كان فداؤه تعليمَ عشرةٍ من غلمانِ المدينةِ القراءةَ والكتابةَ [١].

وكان قد استُشْهِدَ يوم بدر من المسلمين أربعةَ عَشَرَ رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ستة من الخزرج واثنان من الأوس [٢].

وهكذا انتهت غزوة بدر بنصر عظيم للمؤمنين وهزيمة شديدة قاسية على الكفار .

الفوائد الدعوية المستخرجة من غزوة بدر الكبرى :

الأولى : جزاء السيئة بمثلها ، فإن قريشاً اعتدت على المؤمنين وآذتهم في دينهم وأموالهم وأهلهم وديارهم حتى خرج الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرون من أوطانهم وأهليهم ، فاعتراض العير حينئذ ومحاولة الاستيلاء على ما فيها من أموال إنما هو عمل سائغ مشروع ، عدل لا ظلم فيه ، بالإضافة إلى أن المسلمين كانوا في حالة حرب مع كفار قريش والحربي يجوز الاستيلاء على أمواله وبالتالي فهناك سبب خاص وآخر عام سَوَّغَ للمسلمين الخروجَ لملاقات العير ومحاولة الاستيلاء على ما فيها من أموال لكفار قريش .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ / ٣٢٨ ، والشامي ، سبل الهدى ٤ / ١٠٤-١٠٥ ، وأبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ / ١٦٤- ١٦٥ .

(٢) القسطلاني ، المواهب اللدنية ١ / ٣٧٣ .

الثانية : أن المسلمين خرجوا بقصد الاستيلاء على الأموال التي كانت مع العير، فكان خروجهم لهذه الغاية واستعدادهم على قدر تحقيق هذا الهدف وهو ملاقاة ما يقارب السبعين رجلاً في سلاح عادي وبقصد أخذ ما معهم من تجارة ، ولكن الله جل شأنه أراد لهم ما هو أسمى وأعلى من ذلك وأعظم تأثيراً في الإسلام وأوقع ألماً في الكفار وهو ملاقاة النفير ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١) .

فإحقاق الحق وقطع دابر الكافرين غاية أعلى من مجرد ما يحقق من استيلاء على قافلة تجارية فيها أموال الكفار رغم ما في هذا من خير .

الثالثة : كان رسول الله ﷺ يعتقب على بعير هو وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي ولما جاءت نوبة الرسول ﷺ في المشي قالا له : يا رسول الله ، نحن نمشي عنك ، فقال : « ما أنتما بأقوى مني ولا أنا أغنى عن الأجر منكما » ، وبهذا نرى كيف يضرب الرسول ﷺ مع صاحبيه غاية العدل والرحمة ، فمع مكانته عليه الصلاة والسلام لا يرضى بأن يُفَضَّلَ على صاحبَيْهِ ويركب ويدعهما يمشيان ، بل يشاركهما في التعب والنصب والأجر .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم (٧) .

فلما حكم فيهم بذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من جرت عليه الموسى منهم ، ومن لم ينبت أُلْحِقَ بالذرية ، فحفر لهم خندقاً في سوق المدينة وضُرِبَتْ أعناقُهم وكانوا بين الستمائة والسبعمائة ولم يقتل من النساء أحد سوى امرأة واحدة كانت طرحت على رأس سويد بن الصامت رضي الله عنه رحى فقتلته [١] .

وأُتِيَ بحيي بن أخطب وعليه حلة فقاحية [٢] قد شقها من كل ناحية قدر أنملة ؛ لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس فضُرِبَتْ عُنُقُه [٣] .

ما يستخرج من غزوة بني قريظة من فوائد :

الأولى : مبادرة الصحابة إلى امتثال أمر الرسول ﷺ رغم ما بهم من الجهد والمشقة بعد غزوة الأحزاب ، ففور عودتهم نادى منادي رسول الله ﷺ : لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ، فبادروا إلى

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/١٣٤-١٣٥ ، وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/١٢١ ، وانظر : إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٢) قال ابن هشام : (فقاحية : ضرب من الوشي) .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٦٠ .

الخروج فوراً امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ ، وهذا هو شأن المسلم ، الامتثال للأمر ، بل المبادرة إلى امتثال الأمر ، ولو كان الأمر شاقاً ، وترك التسويف والتأجيل للامتثال والعيش مع الأماني . ينبغي على المسلم فور سماعه لآيات الله سبحانه وتعالى أو سماعه لأحاديث رسول الله ﷺ أن يمتثل ما فيها من أمر ويجتنب ما تضمنته من نهي ، طاعة لله ولرسوله ﷺ .

الثانية : خرج الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ إلى بني قريظة ودخل وقت الصلاة ، فمنهم من صلّى ومنهم من تمسك بظاهر النص ولم يُصَلِّ إلا بعد وصوله إلى بني قريظة ، فهم قد اجتهدوا في فهم النص الشرعي وإذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد .

الثالثة : إن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ اجتهدوا واجتهادهم في طلب الحكم الشرعي فاختلفوا ، ومع ذلك لم يعنِّف الرسول ﷺ أياً منهم ، ولم يكن هذا الخلاف سبباً للعداوة والشقاق والنزاع بينهم ، وذلك لأنه خلاف في أمور فقهية ، والخلاف فيها سائغ لا يؤدي إلى عداوة وبغضاء .

والخلاف المذموم هو الخلاف الناشئ عن اجتهاد في نصوص شرعية لم يأذن الشارع في الاجتهاد فيها مثل الخلاف في العقائد أو ما فيه نص شرعي قاطع لا يسوغ لأحد أن يجتهد على خلافه .

النبي ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » وقال لعلي : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر : « أشبهت خلقي وخلقي » وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا »[(١)] .

وفي طريق عودته وبموضع يقال له : (سرف) تزوج الرسول ﷺ ميمونة بنت الحارث ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ ثم واصل سيره إلى المدينة عليه الصلاة والسلام[(٢)] .

الفوائد المستخرجة من عمرة القضاء :

الأولى : كانت عمرة القضاء تمثل صورة من صور انتصار المسلمين على الكفار ، فقد تمكن المسلمون من دخول مكة والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وإعلان شعائر التوحيد على مرأى من قريش ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ، وتتجلى صورة هذا الانتصار واضحة بالمقارنة بين حال المسلمين في بداية الدعوة وحالهم يوم عمرة القضاء حيث كانوا في بداية الدعوة لا يستطيعون حتى المجاهرة بالإسلام أو تلاوة شيء من آيات القرآن الكريم ، ويوم عمرة القضاء يُلَبُّوْنَ ويطوفون ويسعون آمنين مطمئنين .

الثانية : في حمل رسول الله ﷺ للسلاح معه ووضعه في يأجج قريباً من مكة للحيطة والحذر من غدر المشركين نأخذ من ذلك

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٤٤٩/٧ ، رقم ٤٢٥١ .
(٢) انظر: ابن القيم ، زاد المعاد ٣٧٢/٣ .

مشروعية الحيطة والحذر وبخاصة في المواقف التي يُخْشَى فيها من غدر الكفار ومباغتتهم للمسلمين .

الثالثة : مشروعة إغاظة الكفار ، فإن الرسول ﷺ لما علم بما قاله المشركون وأن المسلمين قد وهنتهم حمى يثرب أمر بالرمل في الطواف ؛ ليرى المشركون جلد المسلمين وقوتهم وليريهم من المسلمين ما يغيظهم ، قال في زاد المعاد : (وكان رسول الله ﷺ يكايدهم بكل ما استطاع) [١] وقال مثل ذلك ابن كثير [٢] والشامي [٣] ـ رحمهم الله تعالى ـ .

الرابعة : أن هذه الأفعال بقيت مشروعة إلى يوم القيامة ولو ذهب سبب مشروعيتها ، قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (وهذه قاعدة من قواعد الشرع أن الأحكام المشروعة لهذه الأسباب في الأصل لا يُشْتَرَطُ في ثبوتها قيامُ تلكَ الأسبابِ) [٤] .

الخامسة : في قول الرسول ﷺ : « رحم الله امرءاً أراهم من نفسه اليوم قوةً » أسلوب دعوي فيه الترغيب في إظهار القوة لإغاظة الكفار وأسلوب الدعاء استخدمه الرسول ﷺ في بعض المواقف مثل

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣/ ٣٧١ .

(٢) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ٤/ ٢٢٩ .

(٣) انظر: الشامي ، سبل الهدى والرشاد ٥/ ٢٩٣ .

(٤) ابن القيم ، بدائع الفوائد ٣/ ١٦١ ، وانظر: زاد المعاد ٢/ ٢١٥ ، وتهذيب السنن ٢/ ٣٠٩-٣١٠ .

الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه » قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه ، ثم مسح الرسول ﷺ على صدره ودعاه إلى الإسلام فأسلم [(١)] ، وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[(٢)] .

وأقام الرسول ﷺ بمكة بضعة عشر يوماً ، وفي هذه المدة أرسل النبي ﷺ بعض الصحابة للدعوة إلى الإسلام وهدم الأصنام والأوثان والأنصاب حول مكة ، حيث أرسل خالد بن الوليد ﷺ إلى نخلة لهدم العزى التي كانت مضر جميعاً تعظّمها فهدمها ، وأرسل عمرو بن العاص ﷺ إلى سواع صنم هذيل فهدمه ، وأرسل سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل ـ على طريق مكة / المدينة ـ فهدمها وبذلك أُزِيْلَتْ مراكزُ الوثنيَّةِ من جزيرة العرب[(٣)] .

من أحداث فتح مكة نأخذ الفوائد التالية :

الأولى : الوفاء بالعهد فالمتابع لأحوال المسلمين والمشركين يدرك مدى تفوُّق المسلمين على الكفار في ذلك الوقت ، ولكن قد يكون العهد مانعاً من فتح مكة ، فلما نكثت قريش بالعهد كان عاقبة ذلك

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣ /٤٦ – ٤٧ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي . انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥/٩٥-٩٦ ، وقال الهيثمي في المجمع ٦ /١٧٣ – ١٧٤ : (رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات) ، وإبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص ٥٣٢ .

(٢) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٥/٩٦ .

(٣) انظر : ابن هشام ،السيرة النبوية ٤/ ٦٤ ، و ابن سعد ، الطبقات ١/١٤٥-١٤٦ .

عليها بأن غزاها الرسول ﷺ في عقر دارها وأزال الوثنية الموجودة في مكة .

الثانية : وكذلك أيضاً نأخذ الوفاء بالعهد من قول الرسول ﷺ لعمرو بن سالم : « نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم » فإن هذا من مقتضيات العهد الذي بين الرسول ﷺ وخزاعة . فالاعتداء على قبيلة من أطراف الصلح يُعَدُّ اعتداءً على جميع من في هذا الطرف ، ونقضه مع خزاعة نقض له مع الرسول ﷺ .

الثالثة : في بعث الرسول ﷺ خلف المرأة التي كانت تحمل كتاباً من حاطب ﷺ آية للرسول ﷺ ، فقد اطلع عن طريق الوحي بخبر هذه الرسالة ومكان المرأة ، فبعث خلفها من يأخذ الخطاب منها ، وحدَّد المكان الذي يجدونها فيه ، فوجدوها كما ذكر الرسول ﷺ .

الرابعة : في قصة حاطب ﷺ بيان لمكانة أهل بدر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ورفعة منزلتهم وعظيم سابقتهم في نصرة الإسلام والمسلمين .

الخامسة : في قصة حاطب ﷺ أهمية الرجوع إلى أهل العلم فيما يشكل ، فإن عمر ﷺ قال للرسول ﷺ : دعني أضرب عنق هذا المنافق ولم يتصرف من نفسه بل استأذن ، فبيَّن له الرسول ﷺ الموقف الشرعي الصحيح في هذا .

السادسة : في قصة حاطب ﷺ بيان لمكانة أهل الفضل وأن أخطاءهم تذوب في بحور حسناتهم ، فالعلماء وأصحاب الفضل عموماً أخطاؤهم ليست كأخطاء غيرهم ، بل تقدر حسناتهم ، ويراعى التجاوز عن أخطائهم ، تقديراً لتلك الحسنات .

السابعة : يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في فوائد فتح مكة : (وفيها أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأوِّلاً وغضباً لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه ، فإنه لا يكفر بذلك بل لا يأثم بذلك ،بل يثاب على نيته وقصده وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع ، فإنهم يكفرون ويبدعون لمخالفة أهوائهم ونحلهم وهم أولى بذلك ممن كفروه وبدعوه)[(١)] .

الثامنة : وقال أيضاً : (وفيها أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكَفَّرُ بالحسنة الكبيرة الماحية ، كما وقع الجس من حاطب ﷺ مكفراً بشهوده بدراً)[(٢)] .

التاسعة : إنزال الناس منازلهم نأخذها من قول الرسول ﷺ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن »[(٣)] ففي هذا توقير لأبي سفيان وتمييز له وهو سيد من سادات قريش .

العاشرة : اهتمام الرسول ﷺ بتأليف القلوب ، فقد ألَّف قلب أبي سفيان وهو رجل يحب الفخر بأن جعل من دخل داره فهو آمن ،

---

(١) ابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٤٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ .
(٣) انظر : أبو بكر الجزائري ، هذا الحبيب ص ٤٠٠ .

الفوائد المستخرجة من غزوة حنين وحصار الطائف :

الأولى : نأخذ من استعارة الرسول ﷺ للدروع من صفوان فائدتين :

١. أن للإمام أن يستعير سلاح المشرك لقتال العدو [(١)] .

٢. الاستعداد للقتال امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [(٢)] [(٣)] .

الثانية : في قول بعض من مع الرسول ﷺ : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط نأخذ الحذر من الشرك ، فإن هؤلاء يعلّقون سيوفهم بالشجرة على سبيل التبرُّك ومع ذلك قال الرسول ﷺ : إن هذا مثل قول أصحاب موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

الثالثة : نأخذ أيضاً الحذر من التشبه بالكفار ، والرسول ﷺ يبين ذلك فيقول : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » لذلك مما ينبغي على المسلم بل مما يجب عليه هو الحذر من التشبه بالكفار في

الأوطار ٢ / ١٥١ : (رجال إسناده ثقات) ، وانظر : الألباني ، الثمر المستطاب من فقه السنة والكتاب ١ / ٤٩٦ ، وعند النسائي أنه أمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم ، انظر : سنن النسائي ، كتاب المساجد ، باب اتخاذ البيع مساجد ٢ / ٣٨ – ٣٩ ، وانظر : ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فقد أورد هذين الحديثين في اقتضاء الصراط المستقيم ١ /٢٣٣ – ٢٣٤ ، وقد قال محقق هذا الكتاب عن حديث النسائي : (إسناده جيد) .

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٤٧٩ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية رقم (٦٠) .

(٣) انظر : إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين ٣ / ٩٨ .

جميع أمورهم والتحذير من اتباع أهل الأهواء والزيغ من الأمم الماضية [١] ، كما أن التشبه بالكفار من أهم أسباب البدع ، ففي هذا الحديث أن التشبه بالكفار هو الذي حمل بني إسرائيل على أن يطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها ، كما أن للكفار آلهة يعبدونها وهو الذي حمل بعض أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم أن يسألوه أن يجعل لهم شجرة يتبرَّكون بها من دون الله ، وهذا هو الواقع اليوم ، فإن كثيراً من المسلمين قلَّدوا الكفار في عمل البدع والشركيات وكان بداية ذلك التشبه بالكافرين [٢] .

الرابعة : في قول بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ (اجعل لنا ذات أنواط) دليل على أنه مستقر عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن العبادات مبناها على الأمر [٣] وهذا مبدأ مهم في سد باب الابتداع في الدين .

الخامسة : لما قال رجل من المسلمين : (لن نغلب اليوم من قلة) ونتيجة ذلك ، وما نزل فيه من القرآن نأخذ الحذر من الغرور ، يقول أبو بكر الجزائري فيه : (حرمة الإعجاب بالنفس أو العمل أو القوة إذ ترتب على ذلك هزيمة المؤمنين في أول لقائهم بعدوهم) [٤] .

---

(١) انظر : سعيد بن حجي ، الكلام المنتقى مما يتعلق بكلمة التقوى ص ٣٩ (مطبوع على الآلة) .
(٢) انظر : صالح الفوزان ، كتاب التوحيد (الرياض : مكتب الأثير ، د.ت) ص ٨٧ .
(٣) انظر : إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة حنين ص ١٣٤ .
(٤) أبو بكر الجزائري ، هذا الحبيب ص ٤١١ .

السادسة : في هذا الموقف أيضاً درس في العقيدة ، فإن وقعة بدر قد قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئاً في جنب أعدائهم إذا كانوا صابرين ومتقين وأن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضاً لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين .

السابعة : لما نادى العباس ﷺ أصحاب بيعة الشجرة ، ونادى الأنصار والخزرج كانوا يبادرون إلى الاستجابة والرجوع إلى رسول الله ﷺ حتى إذا لم يتمكن أحدهم من عطف جمله نزل عنه وتركه ورجع بسلاحه إلى رسول الله ﷺ وهذا يؤكد لنا وجوب الاستجابة لرسول الله ﷺ ويذكرنا بأهمية المبادرة إلى ذلك فور سماعنا للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة .

الثامنة : نلاحظ أن الرسول ﷺ وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين لم يعنِّف أحداً ممن فرّ منه ، بل لما قالت له أم سليم أن يقتل الطلقاء لفرارهم قال : « إن الله قد كفى وأحسن » . فالتعنيف واللوم لأمور مضت وانتهت لا سبيل إلى تداركها وبخاصة في مثل أمور الحرب التي تندهش فيها النفوس رأى الرسول ﷺ بكريم خلقه عدم إثارتها وهكذا يحسن العفو والتجاوز والإقلال من التثريب على ما يقع من المسلم من الأخطاء التي لا يمكن تداركها ويلتمس للمسلم بعض العذر في ذلك والله أعلم .

وكان المتخلفون في غزوة تبوك أربعة أصناف :

الأول : مأمورون مأجورون كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة ـ رضي الله عنهما ـ .

والثاني : معذورون وهم الضعفاء والمرضى .

والثالث : عصاة مذنبون كالثلاثة الذين خُلِّفُوْا .

والرابع : ملومون مذمومون وهم المنافقون [(١)] .

الفوائد المستنبطة من غزوة تبوك :

الأولى : مشروعية الجهاد بالمال وأنه قرين الجهاد بالنفس بل ورد مقدَّماً عليه في عدة آيات من كتاب الله عز وجل قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [(٢)] .

الثانية : مبادرة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى الجهاد بالمال والنفس ولنا بهم أسوة حسنة في المبادرة إلى التبرع بالمال للجهاد في سبيل الله أو لمصلحة شرعية اقتضت ذلك .

الثالثة : مشروعية التنافس في الخير فإننا نرى أن الرسول ﷺ لما دعا إلى الصدقة للنفقة في غزوة تبوك بادر عمر ﷺ منافساً ومسابقاً لأبي بكر ﷺ كما مر معنا في الحديث حيث تصدَّق بنصف ماله ظانّاً أنه سيسبق أبا بكر ﷺ لكن أبا بكر ﷺ سبقه بالصدقة بكل ماله .

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٥/ ٢٧ .
(٢) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٥) .

الرابعة : فضيلة ظاهرة لأبي بكر الصديق ﷺ الذي جاء بماله كله للجهاد في سبيل الله وهذا يظهر قوة توكُّله على الله وعِظَم إيمانه الراسخ . وكذلك فضيلة عمر بن الخطاب ﷺ الذي جاء بنصف ماله وكذلك عثمان ﷺ الذي تصدق بتلك الصدقات الكبيرة حتى قال عنه الرسول ﷺ : « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » .

الخامسة : جاء أبو بكر الصديق ﷺ بكل ماله إلى الرسول ﷺ فقبله منه (وفي سنن أبي داود أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ بمثل بيضة من ذهب فقال : يا رسول الله أصبت هذا من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها ، فأعرض عنه الرسول ﷺ ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأتاه من خلفه ، فأخذها رسول الله ﷺ فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته . فقال رسول الله ﷺ : « يأتي أحدكم بما يملك فيقول هذه صدقة ثم يقعد يستكف الناس ، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى »[(١)] .

وكعب بن مالك ﷺ لما نزلت توبته قال للرسول ﷺ : (إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ) قال رسول الله ﷺ : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك »[(٢)] .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ١٢٨ ، وانظر : ابن القيم ، زاد المعاد ، هامش ٣ / ٥٨٩ ، حيث قال محققه : (ورجاله ثقات) ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبو داود ص ١٦٩ ، رقم ٣٦٩ .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٥/ ٣٤ ، كتاب رقم ٦٤ ، باب ٧٩ .

فقد قبل الرسول ﷺ من أبي بكر الصديق الصدقة بماله كله وعنَّف الرجل الذي جاء يريد الصدقة بكل ما يملك وأشار على كعب ﷺ بالأرفق من إمساك بعض المال وعدم الصدقة بالجميع . فالرسول ﷺ عامل كل واحد بما هو الأصلح له فلم ينكر على أبي بكر ﷺ لعلمه بقوة صبره وتوكله [١] والذي لا يحتمل اختلفت معاملته ، فلا يُؤْذَن للشخص بالصدقة بكل ماله إذا كان ممن يخشى عليه الفتنة أو لا يستطيع الصبر على الفقر [٢] وهذا من الحكمة في الدعوة إلى الله وذلك بمراعاة تفاوت الأشخاص واختلاف قواهم الإيمانية ومقدرتهم على التحمل والصبر ، والتعامل مع كل فرد بحسبه [٣] .

السادسة : في غزوة تبوك فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب ﷺ عندما قال له الرسول ﷺ حينما استخلفه في المدينة : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي ؟ .

السابعة : لما بادر المؤمنون إلى الصدقة كل بما يستطيع ، فمن كان موسراً تصدَّق بالكثير ومن كان مُقِلاً تصدَّق بالقليل ، لكن المنافقين لا يسلم منهم أحد فإذا رأوا غنياً ينفق كثيراً قالوا : هذا مُرَاءٍ ، وإذا جاء فقير بشيء قليل قالوا : إن الله عن صدقة هذا لَغَنِيٌّ ، ولذلك فعلى

---

(١) انظر : السهارنفوري ، بذل المجهود ٨ / ٢٢٧ .

(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ /٥٨٩ ، والخطابي ، معالم السنن المطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري ٢ / ٢٥٤ ، وابن العربي ، عارضه الأحوذي ١٣ / ١٤٠ ، والعظيم آبادي ، عون المعبود ٥/ ٩٤.

(٣) انظر : زيد بن عبد الكريم الزيد ، الحكمة في الدعوة إلى الله ص ٥٢ — ٥٥ .

المؤمن أن يبادر إلى عمل الصالحات ولا يهتم بما يقوله أمثال هؤلاء الذين قل أن يسلم منهم عصر أو مصر .

الثامنة : الحذر من السخرية والاستهزاء وسوء عاقبة ذلك . فإن المنافقين سَخِرُوْا من المؤمنين وقالوا : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال ، ثم قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب ، فنزلت الآيات التي تبيِّن حُرْمَةَ هذا القول وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة ويكفي فيه قوله تعالى : ﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

التاسعة : أن المنافقين سخروا من المؤمنين ومع ذلك نزلت الآية تبين أن هذه سخرية بالله وآياته ورسوله مما يدل على شدة هذا القول وحرمة عِرْض المؤمنين حينما جعل السخرية بالمؤمنين سخرية بالله وآياته ورسوله والاستهزاء والسخرية بالأمر استهزاء وسخرية بالآمر وليس بالمأمور . وهذا يدل على شدة الاستهزاء والسخرية بشيء من القرآن الكريم أو من السنة النبوية أو شيء من الأحكام الشرعية .

العاشرة : لما مرَّ الرسول ﷺ بالحجر ـ ديار ثمود ـ أسرع السير ، ولذلك ينبغي على من مرّ بديار المغضوب عليهم والمعذَّبين أن لا يدخلها ، بل يسرع السير ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً [(١)] .

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ٣ / ٥٦٠ .

وعن زيد بن أرقم قال : قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : « أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال : « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم [(١)] .

الفوائد المستخرجة من حجة الوداع :

الأولى : في خروج أبي بكر الصديق ﷺ أميراً على الحج في السنة التاسعة فضيلة ظاهرة لأبي بكر ﷺ .

---

(١) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووى ١٥ / ١٧٩ – ١٨٠ ، كتاب فضائل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فضائل علي ﷺ ، وانظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٤ / ٣٣٠ ، رقم ١٧٥٠ حيث جاء في الطريق الأول للحديث ما نصه : (لما دفع النبي ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم ... الخ) ، وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٥ / ٢٠٩ .

الثانـية : في خروج علي بن أبي طالب ﷺ ليبلغ عن الرسول ﷺ مع أبي بكر ﷺ فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب ﷺ .

الثالـثة : أن حج أبي بكر ﷺ وإبلاغ علي ﷺ كان تمهيداً لحج الرسول ﷺ ، والمقصود منه تطهير مكة من الشرك والمشركين حتى إذا حَجَّ رسول الله ﷺ لم يجد في مكة شركاً ولا مشركاً .

الرابعة : أن إبلاغ البراءة من المشركين التي حملها علي ﷺ كانت لمرة واحدة تحققت بها الغاية وهي تطهير مكة من المشركين وبالتالي فلا يُشْرَع تكرارُها بدليل أن النبي ﷺ حجَّ حجة الوداع ولم يأمر علياً ولا غيره بالبراءة .

الخامسة : الوفاء بالعهد الذي التزمه الرسول ﷺ للمشركين ، فمن كان له عهد فهو إلى مدته ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [1] ورسول الله ﷺ خير من طبَّق كتاب الله سبحانه وتعالى وعمل به ، وهو القائل ﷺ في صفات المنافق إنه « إذا عاهد غدر » [2] .

السادسة : التعليم بالقدوة فقد كان من مصالح خروج الرسول ﷺ بنفسه تعليم الناس مناسك الحج تعليماً عملياً يؤدي أمامهم مناسك

---

(١) سورة الاسراء ، الآية رقم (٣٤) .

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١ / ٨٩ ، رقم ٣٤ .

والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحاً وقد وقع كل ذلك)[١] .

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا المصطفى محمد بن عبد الله صلاة دائمة أبدية تتجدد بتجدد الأوقات ، اللهم احشرنا تحت لوائه وأوردنا حوضه وأدخلنا معه الجنة برحمتك يا أرحم الراحمين .

الفوائد المستخرجة من قصة وفاة المصطفى ﷺ :[٢]

الأولى : كان الرسول ﷺ وهو في مرض موته يحرص أن يبيت عند كل زوجة في ليلتها حتى ثقل ، فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد كان يحمل من بيت إلى بيت ليبيت فيه وفي هذا درس عظيم في العدل بين النساء في المبيت نتذكره فنتذكر كمال عدله وحسن معاشرته ﷺ لنسائه ، مع أن القسم بين نسائه ليس واجباً على الأرجح[٣] ، ونتذكره حينما نرى تهاون البعض في العدل بين

---

(١) النووي ، شرح صحيح مسلم ١٦ / ٨٣ .

(٢) لقد شق علي وأنا أكتب الفصل الأخير من فوائد سيرة المصطفى الحبيب ﷺ وداعه أولاً ثم وداع الكتابة في سيرته ﷺ ومطالعة الكتب التي تتحدث عن سيرته والعيش معها بعد صحبتها سنوات لقد شق علي الشعور بقرب الفراق فأحببت أن أتنفس قليلاً وأتمتع بصحبة المصطفى ﷺ وبخاصة مع هذا الفصل الخاص جداً عن لحظات وداع الحبيب للدنيا الفانية فأكثرت الفوائد أكثر من المعتاد وهي مشاعر يعيشها كل مسلم يقرأ لحظات وداع الحبيب المصطفى للدنيا .

(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢١٤ ، وابن حجر ، فتح الباري ٣٠٣/١ ، والسباعي ، المرأة في الفقه والقانون ص ٨٤ ، وأبو صالح ، مرض النبي ﷺ ص ٤٨ .

الزوجات والحيف في حقوقهن وتفضيل بعضهن على بعض واتباع الهوى وميل النفس لزوجة دون أخرى في حال الرخاء ، والرسول ﷺ في مرض الموت لا ينسى العدل ، فهل من متأسٍ مقتدٍ بالحبيب المصطفى ﷺ ؟ .

الثانية : فضيلة خاصة لعائشة بنت الصديق ـ رضي الله عنهما ـ عندما اختار الرسول ﷺ أن يمرض عندما وكان قبل ذلك يسأل أين أنا غداً استعجالاً ليومها ـ رضي الله تعالى عنها وأرضاها ـ .

الثالثة : قد تضمنت قصة وفاة النبي ﷺ أربع فضائل ، بل خصائص لأبي بكر الصديق ﷺ :

١) أن الرسول ﷺ خطب فقال : « إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » فبكى أبو بكر ﷺ ـ قال الراوي : فقلت في نفسي ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله ؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد ، وكان أبو بكر أعلمنا)[(١)] .

٢) قوله ﷺ في بقية الحديث السابق : « وإن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة في الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر »[(٢)] .

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١/ ٥٥٨ ، رقم ٤٦٦ .
(٢) المرجع السابق .

٣) حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه فحضرت الصلاة فأذن فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس »[١] .

٤) حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال في ابتداء مرضه الذي مات فيه[٢] : « لقد هممت ـ أو أردت ـ أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد ، أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون ثم قلت : يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون »[٣] .

هذه جملة من خصائص أبي بكر الصديق ﷺ التي وقعت مع مرضه ﷺ والتي كانت بمثابة الإشارات المتتابعة لأحقية أبي بكر الصديق ﷺ في الخلافة من بعده .

الرابعة : الأحاديث السابقة كما فيها تكريم لأبي بكر الصديق ﷺ ، ففيها منهج يدلنا عليه الرسول ﷺ وهو الإقرار بالفضل لأهله[٤] وذكر أهل الإحسان والخير بما يستحقونه من الاعتراف لهم بالصنيع الحسن .

الخامسة : في قصة بعث أسامة بن زيد بن حارثة ـ رضي الله عنهما ـ وهو مولى ابن مولى لا يصل عمره عشرين سنة ومع ذلك فلا

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٢ / ١٥١ ، رقم ٦٦٤ .
(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ١٠ / ١٢٥ .
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ١٠ / ١٢٣ ، رقم ٥٦٦٦ .
(٤) انظر : أبو شهبة ، السيرة النبوية ٢ /٥٩٢ .

الصغر ولا الرق القديم منع الرسول ﷺ من أن يجعله أميراً على عامة الصحابة فيهم من كبارهم وفيهم القرشيون بل فيها من هو أفضل من أسامة كالفاروق - رضي الله عنهما - في غزوة مهمة بعيدة المدى يدلنا هذا على أن تلك الصفة لا تحط من قدر الشخص في الإسلام والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (١).

السادسة : نأخذ أيضاً من هذا الموقف فضل أسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنهما - حيث اختاره الرسول ﷺ قائداً لهذا الجيش وهي تزكية عظيمة من الرسول ﷺ وهو الحب بن الحب ﷺ وعن والده وقد قال ﷺ عنه وعن أبيه : « وإن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلي ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده » (٢).

السابعة : في اختلاف الصحابة بين يدي الرسول ﷺ وهو مريض ، وقد قال لهم هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده فاختلفوا في ذلك فقال النبي ﷺ : « قوموا عني » نأخذ آداب زيارة المريض ، يقول ابن حجر - رحمه الله تعالى - : (ويؤخذ من هذا الحديث أن الأدب في العيادة أن لا يطيل العائد عند المريض حتى يضجر ، وأن لا يتكلم عنده بما يزعجه) (٣).

---

(١) سورة الحجرات ، الآية رقم (١٣).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح ٧ / ٨٦ ، رقم ٣٧٣٠.
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ١٠ / ١٢٦.